

# سيكولوجية الحوار في القصيدة الجاهلية

د. ليلى نعيم عطية الخفاجي



بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة:

يخضع النص الشعري في عصر ما قبل الإسلام لمقاربات تحليلية شتى، لان النص بطبيعته يبدو طيعاً لمن يتناوله بالدرس والتحليل، ووجوده تقتضيه الضرورة التي غالبا ماتكون ضرورة آنية تتناسب مع مقتضى الحال، ويبقى النص الشعري مؤهلاً للكشف عن دلالات نفسية في إطار التحاور بأنماطه المختلفة ومحاوره المتباينة؛ لأن الشعر تعبير عن ميول وبواعث عززت أركان التجربة الإبداعية، والحوار بكل أبعاده يهيىء ذهنية المتلقي لاستقبال الدوافع المختلفة التي اقتضت التحاور في النص، فحين يعبر الشاعر عن مشاعره وأفكاره لم يكن بمعزل عمن حوله بل يتفاعل تفاعلاً مباشراً مع محيطه الخارجي والداخلي، فموضوع القصيدة "لم يأت ارتجالا وانما عاش قبل التأليف حياة متطورة منفعلة بمختلف المؤثرات النفسية التي تتصل به من قريب او بعيد[(١)]".

ان استخدام الحوار في النص الشعري يخضع لمقاربات نفسية يعزز الشاعر من خلالها قدرته على تنامي الحدث واستشراف المشاركة الوجدانية لتفعيل الغرض او الفكرة التي يود التعبير عنها من خلال النصوص الشعرية التي يقدمها.

ويأخذ الحوار انماطا متعددة تثبت براعة الشاعر وقدرته على ايصال المشهد الى ذروة الابداع الفكري في اطار انساني وفني يتيح للمتلقي فرصة امكانية الوقوف على الحدث والتفاعل معه.

ويعد الحوار أهم عناصر القصة في القصيدة الجاهلية يهدف من خلاله الشعراء الى إيصال أحاسيسهم وعمق أفكارهم وما يجول في أنفسهم

(١) سيكولوجية الابداع في الفن والأدب: ١٠٧.

الى المتلقي، كما ان الحوار لايتقيد بشخصية واحدة، وانما تتعدد الأشكال فيه وتتنوع الشخصيات حيث نجد عندهم حواراً مع النفس مما يطلق عليه بالمفهوم المعاصر المونولوج الداخلي أو حوارا مع المرأة (زوجة أو حبيبة أو بنتا او أما) او حوارا مع الابناء والأصحاب والحيوان في مشاهد الصحراء والصيد.

ونحن اذ نستجلي في هذا البحث طبيعة الحوار في النص الشعري فنحاول الوقوف على أبعاده لنستوعب البعد النفسي وتجلياته وبواعثه في قصائد الشعراء في عصر ما قبل الإسلام وأهميته داخل التجربة الشعرية الابداعية للشعراء. ويأخذ الحوار في النص الشعري أشكالاً متعددة منها:

**١. الحوار مع المرأة:**

ان عملية الحوار مع المرأة تكشف الابعاد النفسية للشاعر حين تكون المرأة في اطار الحدث وعمق التجربة الابداعية والفنية له، فالتحاور مع المرأة يأخذ اشكالا متعددة في قصائده؛ لأن المرأة تشكل الباعث النفسي لتجاربه الموضوعية والفنية والقادرة على رفد النص بالزخم الفكري والابداعي والنفسي له. فهو يحاول اسقاط ما في نفسه على المرأة عن طريق التحاور معها لغرض ايصال فكرته التي يرغب في التعبير عنها باسلوب حواري هاديء وشفاف. وهذا "عنترة بن شداد" يحاور "عبلة" بقوله:

**عجبتْ عُبيلةُ مـن فتـىً متبـدِّلِ ... عاري الأشاجعِ شـاحبٍ كالمنُصَـلِ**
**شعثِ المفـارِق مُـنهجٍ سـربالُهُ ... لـم يـدَّهِنْ حَـوْلاً ولـم يترجَّـلِ**
**لا يكتسي الا الحديـدَ اذا اكتسـى ... وكـذاكَ كـلُّ مُغـاورٍ مستبسـلِ**
**قد طالَ ما لـبسَ الحديـدَ فإنّمـا ... صـدأُ الحديـدِ بجلـدةٍ لـم يُغسـلِ**
**فتضاحكتْ عجبـاً وقالـت قولـةً ... لا خيـرَ فيـك كأنّهـا لـم تحفِـلَ**
**فعجبتُ منها كيف زلَّـت عينُهـا ... عن ماجدٍ طلْـق اليـدينِ شـمردَلِ**

**لا تصرميني يا عبيلــةُ وراجعــي ... فــيِّ البصــيرةَ نَظــرةَ المتأمــلِ**[١]

ان اسلوب الحوار الذي اجراه الشاعر عنترة بن شداد مع حبيبته عبلة يأخذ أبعادا نفسية تنطوي على عمق الألم الذي يستبطن دواخله، فحين رأته عبلة متغير الحال أشعث الشعر شاحب الوجه ضحكت منه غير مبالية بخصاله الحميدة وفروسيته الفذة التي لامثيل لها لانها تريد معشوقها كامل الأوصاف يغري أنوثتها، فالشاعر شقي بحبه أكثر مما سعد به، لأن سخرية "عبلة" توجعه الا انه يحاول استمالتها عن طريق عرضه لمفاخره وفروسيته واخلاقه الأصيلة فيقول:

**يا عبلُ كم من غمــرةٍ باشــرتُها ... بالنفسِ من كادت لعَمــرُكِ تنجلــيِ**
**فيها لوامعُ لو شــهدت زُهاءَهــا ... لســلوْتِ بَعــد تخضُّــبٍ وتَكحُّــلِ**
**إمّا تريني قد نحلْتُ ومــن يكــنْ ... غرَضاً لأطرافِ الأســنَّة ينحــلِ**[٢]

فياعبلة لو شهدت الغزوات والمعارك التي خضتها لما تحدثت بحديث العشاق الذين يتطلعون الى اللهو ولتركت زينتك من هول ما أرى في ساحات القتال.

ويتسامى ببطولته الفذة حين يقدم دليلاً ناصعاً لحبيبته "عبلة" فيقول:

**فلرُبَّ أبلجَ مثل بَعلِــك بــادنٍ ... ضخْمٍ على ظهــر الجــوادِ مُهبَّــلِ**
**غادرتُــــهُ متعفــرَّاً أوصــــالُهُ ... والقـــومُ بـــين مُجَّــرحٍ ومُجــدَّلِ**
**فيهم أخوثقةٍ يُضــاربُ نــازلاً ... بالمشرَفيِّ وفــارسٌ لــم ينــزِلِ**[٣]

وحين يقدم لعبلة الدليل القاطع والبرهان الساطع على فروسيته فانه يسعى الى تقديم نفسه بانه الفارس الأمثل الذي لايجارى في ساحات

---

(١) الديوان: ٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٦.

الوغى التي تشهد على فروسيته وشجاعته، كما انه ينصف خصماً كان غريماً له "مثل بعلك بادن" ليكون هذا الرد تعويضاً عن سخريتها الموجعة.

ان حاجز اللون كان وراء فشل علاقات "عنترة" مهما كانت هذه العلاقات الا انه أكسبه الكثير من التحدي والاصرار على اثبات وجوده في الحياة وقد تمثل هذا في فروسيته التي لم تكن فروسية هوجاء ولا مغامرة الى أبعد الحدود[١].

فسمات الحوار الذي أجراه "عنترة" مع حبيبته كان حواراً هادئاً شفافاً تلقائياً مدعماً بالحجة والبرهان بان هذا التغير الذي تراه الحبيبة في شخص "عنترة" انما هو نتاج الفروسية الحقة والشجاعة الفائقة ولم يكن لعيب فيه.

ويتحاور الشاعر "سحيم" عبد بني الحسحاس مع المرأة على نحو المباهاة:

**ومثلكِ قد أخرْجتُ من خِـدْرِ بيتهـا ... الـى مجلـسٍ تجُـرُّ بُـرْداً مُسـهَّما**

**وماشـيةٍ مشـيَ القطـاةِ اتَّبعتهـا ... مِنْ السِّـترِ نخشـى أهلَهـا أن تكلَّمـا**

**فقالتْ له يـا ويـحَ غيـركَ إنّنـيْ ... سـمعتُ كلامـاً بيـنهم يقطُـرُ الـدَّما**

**فـنَّفَضَ ثوبيـهِ ونظَّـرَ حولَـهُ ... ولم يخـشَ هـذا الليـل أنْ يتصـرَّما**

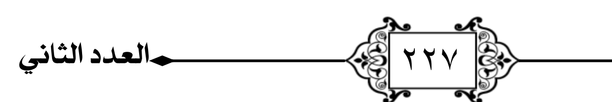
**نعفِّـي بآثـارِ الثيـابِ مبيتنـا ... ونلقـطُ رفضـاً مـن جُمـانٍ تحطَّمـا**

**إلا حبـذا مسـراكِ مـن ثـمَّ ليلـةً ... طرقْتِ على شحطِ النَّـوى أمَّ أسـلما[٢]**

يتباهى الشاعر "سحيم" أمام حبيبته بانها ليست الوحيدة في ميدان عشقه، ذلك لان مثلها كثيرات يسرعن الى لقائه من خدورهن وهن مرتديات أجمل الثياب وأحلاها، وقد وصف الشاعر المرأة التي خرجت تتسلل اليه في عمق الظلام من خدرها بانها رقيقة وديعة كالقطاة في مغامرة ليلية يخشى كل

(١) ينظر: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي: ٣٥.

(٢) الديوان: ٣٥.



منهما الكلام خفية، كما ان الفتاة قد جاءت تحمل اليه نبأً فاجعاً بمؤامرة القوم لقتله. فقد سمعت منهم كلاماً "يقطر دماً".

ان صيغة الحوار تجمع بين الغرور والمباهاة وبين الخوف من القتل، فالحوار قد بدا هادئاً في أوله يكشف عن لذة الشاعر ومتعته مع النساء الأخريات لكنه تأجج بعد الصدمة التي تلقاها الشاعر بسماعه نبأ مقتله على يد القوم، كما ان الحوار لم يكن حواراً مباشراً بينه وبين المرأة بل ترك المرأة هي التي تتكلم ويكون الحوار مع المرأة مولماً في لحظات الوداع لاسيما وانها لاتصد عنه او تهجره دلالاً ولكنها مرغمة على الرحيل ويبرز هذا الحوار في قصيدة للشاعر "قيس بن الحدادية" بقوله:

**وقلت لها فـــي السِّــر بينـــي وبينهـــا — على عجلٍ: أيّـــان مَـــن ســـارَ راجـــعُ**
**فقالـــت: لقـــاءً بعـــد حـــولٍ وحجّـــةٍ — وشحطُ النوى الا لذي العهـــدِ قـــاطعُ**
**وقد يلتقي بعد الشَّتّات أولـــو النـــوى — ويسترجعُ الحيَّ الســحابُ اللوامـــعُ(١)**

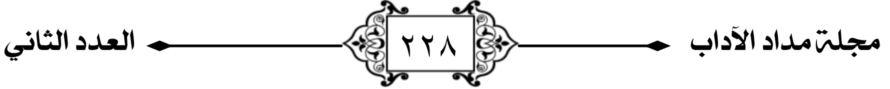
ويبدو الحوار بين الشاعر وحبيبته نوعاً من المناجاة النفسية يقوم على أساس التكافؤ في المواساة والتصبر، فالشاعر يواسي حبيبته كما تعمد هي لمواساته حيث نجده يبث لواعجه وآلامه لفراق الحبيبة، كما تقابله هي بالمثل: فالألم يعتصر قلب الشاعر كما يعتصر قلب الحبيبة ولايجدان الا التصبر والتأسي.

ونجد الشاعر "قيس بن الخطيم" يقيم حواراً مع "ابنة العمري" ليعكس خوفه وقلقه على قومه من جراء ماينشب بينهم من حروب وثارات بقوله:

**تقول ابنةُ العمـــري آخـــر ليلهـــا — عـــلامَ مُنعـــتَ النـــومَ ليلُـــكَ ســـاهرُ**
**فقلتُ لها قـــومي أخـــاف علـــيهم — تبـــا غـــيّهم لا يـــبهكمْ مـــا أحـــاذرُ**
**فلا أعـــرفنكم بعـــد عـــزٍّ وثـــروةٍ — يُقـــال إلا تلـــك النبيـــتُ عســـاكرُ**

---

(١) عشرة شعراء مقلون: ٣٧.



**فلا تجعلوا حرباتِكُمْ فـــي نحـــوركمْ      كما شدَّ ألواح الرِّتـــاج ألا المســـامرُ[1]**

فالحبيبة تتساءل عن سبب أرق الشاعر وسهاده مما جعله من خلال الحوار يقدم تبريراً منطقياً لهذا التساؤل وهو موضوع الحرب الدائرة بين أبناء قومه وخوفه عليهم ثم اتجه مباشرة الى قومه يحذرهم مما هم فيه داعياً اياهم الى التماسك والالتحام موجهاً النصح والارشاد اليهم بتوجيه سلاحهم الى الأعداء وليس الى بعضهم البعض.

وتتجسد روعة الحوار في قصيدة الشاعر "لبيد بن ربيعة" في حديثه مع المرأة حيث تتجلى مناجاتها اياه فهي معجبة به حين كان شاباً وسيماً، وهي الآن تأسف لما رأته من تغير حاله وقد اضرّ به الكبر والشيب فيقول:

**قالت غداةَ انتجينا عنـــد جارتهـــا      أنتَ الذي كنت لولا الشـــيبُ والكِبَـــرُ[2]**

ان لفظة (أنت الذي كنت) تحمل دلالة عميقة مشحونة بايحاءات عاطفية جميلة مؤثرة تحمل وقعاً مؤثراً في نفسية الشاعر فكان الجواب صادقاً بأن بياض الرأس من الكبر وانما من شدة الحوادث ووقعها في ساحات القتال وخوضه غمرات الحروب وصبره على وقائع الأيام وأهوالها:

**فقلت ليس بياضُ الرأسِ مـــن كِبـــرٍ      لو تعلمـــين وعنـــدَ العـــالم الخَبـــرُ**
**لو كان غيري سُليمى اليـــومَ غيَّـــرهُ      وقعُ الحوادثِ إلاّ الصَـــارمُ الـــذَكَرُ[3]**

ان الحوار هنا أشبه بمناجاة عاطفية مؤثرة قد انطوى على عمق اللذة والألم في آن واحد. فاللذة تتجسد في كونه شاباً وسيماً يغري النساء في شبابه والآن أصبح شيخاً وقد ألم برأسه الشيب وهذا منتهى الألم والمرارة

---

(١) الديوان: ٣٠٨.

(٢) شرح الديوان: ٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ٦٢.

فتحولت لذته الى ألم لكنه تسامى على ألمه ويعلن بأيماءة صريحة ان تغير حاله كان بفعل الحوادث وشدة الوقائع وهول المصائب فشاب قبل أوانه، كما يقول ولو كان غيري غيّرته الحوادث ولكنني صارم كالسيف لم تغيرني الحوادث.

**٢. الحوار مع الحيوان:**

وفي مشهد صيد عند الشاعر الفارس "عمرو بن معد يكرب الزبيدي" تراه يحاور اسداً في موقف فروسي رائع يصف اللحظة المرعبة لهيئة الأسد وقوته في حوار يعكس لنا قدرة الشاعر على المواجهة مع خصمه فيقول:

**وقلتُ لــه وقــد أبــدى نصــالاً　　مُحـــــدّدةً ووجهـــــاً مكفهِـــــرّاً**
**يـــدُلُّ بمخلـــبٍ وبحـــدِّ نـــابٍ　　وباللحظـــاتِ تحســـبُهُنَّ جَمْـــرا**
**وفي يُمنايَ ماضي الحــدِّ أبقــى　　بمضـــربهِ قِـــراعُ الحـــربِ أثْـــرا**
**ألــم يبلُغْــكَ مــا فعلــتْ ظبــاهُ　　بكاظمـــةٍ غـــداةَ لقيـــتُ عَمْـــرا**
**وقلبي مثلُ قلبكَ لــيس يخشــى　　مصــاولةً فكيــف أخــافُ ذُعْــرا**
**وأنــتَ تــرومُ للأشــبالِ قوتــاً　　وأطلـــبُ لابنـــةِ الأعمـــامِ مَهْـــرا**
**ففــيمَ تســومُ مثلــي أن يُــولّي　　ويجعلَ في يــديكَ الــنفسَ قَهْــرا**
**نصحتُكَ فالتمسْ ياوَيْــك غيــري　　طعامـــاً إنَّ لحمـــيَ كـــانَ مُـــرّا**
**فلمــا ظــنَّ أنّ الغــشَّ نُصْــحي　　وخـــالفني كـــأنّي قلــتُ هَجْــرا**(١)

ويصل الحوار هنا الى ذروة التوتر وكأننا أمام مبدع مسرحي بارع في رسم لوحة المواجهة العنيفة بين أسدين فالبطولة المثلى للأسد مقابل البطولة المثلى للشاعر فالشاعر أمام الأسد في موقف المواجهة وهو يحاوره محاورة البطل للبطل ويقدم له الدليل القاطع على بطولته وهو يمتشق سيفه

(١) الديوان: ٩٤-٩٧.

في ساحات الوغى، ومن خلال المحاورة نجد ان الشاعر ينصف خصمه "وقلبي مثل قلبك ليس يخشى" لانه على يقينية تامة بأن قلب الأسد لا يخاف وهو في موقف الدفاع عن قوت أشباله كما الشاعر يحاول تقديم المهر لأبنة عمه من خلال الصيد، فالخصمان لهما موقفان متشابهان، فالحوار هنا جاء بين الند للند ثم يقدم الشاعر نصيحته للأسد أن يلتمس الطعام في مكان آخر.

ان الشاعر هنا أصبح في موقف لايحسد عليه إمّا خوض المعركة ببسالة وإمّا الفرار من سطوة الأسد برسم صورة أخرى لهذا المشهد المروع فيقول:

**مشى ومشيتُ من أسـدينِ رامـا ... مرامـاً كـان إذْ طلبـاهُ وَعْـرا**
**هززتُ لهُ الحُسـامَ فخلْـتُ أنّـي ... شففتُ به لـدى الظلمـاء فجـرا**
**وجـدتُ لـه بجائشـةٍ أرَ تْـهُ ... بـأن كَذَبَتْـهُ مـا منَّتْـهُ غـدْرا**
**وخـرّ مُضـرّجاً بـدمٍ كـأنّي ... هـدمتُ بـه بنـاءً مُشْـمخِرّا**
**وقلـتُ لـهُ: يعِـزُّ علـيَّ أنّـي ... فقلـتُ مُناسـبي جلَـداً وقَسْـرا**
**ولكن رُمْـتُ شـيئاً لـم يَرُمْـهُ ... سِواكَ فلـم أُطِـق ياليـثُ صـبرا**
**فإن تكُ قد قُتِلـتَ فلـيسَ عـارا ... فقـد لاقيـتَ ذا طـرفينِ حُـرّا**(١)

ويتنامى الحوار مع الحركة السريعة في كل جزئية من جزئيات الصورة تتخلله لغة مرهفة وتأزماً في الأحداث فالوضع قد تفجر عنفاً وبدأ الصراع بين الليثين سلاحاً ذا حدين، لتأتين النهاية بقتل الشاعر للأسد مع ألمه لقتله هذا الخصم الشبيه له في المصاولة والقوة انطلاقاً من حس الشاعر ونبله وانصافه خصمه النظير له في الشجاعة والقدرة على المواجهة ــ اذن هي مواجهة الخصم للخصم والند للند والنظير للنظير. فالحوار هنا قد جاء متساوقاً ومتناغماً مع سرعة الحدث كما انه يتسم برشاقة الكلمات ورهافتها

---

(١) الديوان: ٩٤-٩٧.

انطلاقاً من قدرة الشاعر على ابراز الحدث بهذه الصورة وتأطير المشهد بالحيوية والتوتر والتشويق. فاللوحة تبدأ بمواجهة مع الأسد ثم ثبات الشاعر الفارس وتقدمه نحو خصمه ثم يبدأ الحوار أولا بالمعاتبة ثم نهيه عن الإقتراب لكن الأسد الباحث عن الفريسة لا يسمع النصح ولا يقبل التراجع كما ان الشاعر الفارس يرفض التراجع أيضاً، لأن من شروط الفروسية الحقة الثبات والمواجهة في ساحة الوغى ومن أخلاق الفارس الملتزم أنْ لا يخل بشرط من شروط الفروسية والحفاظ على المواقف البطولية التي من شأنها أنْ تجعل الفارس قدوة يقتدى به ومثالاً يحتذى به بعد أنْ تتفجر سماته البطولية في ذاكرته بأنه عصيّ على الفرسان في ساحات القتال ولحمه مرّ لايؤكل. ينتهي هذا التكييف والبراعة في التصوير الى صعق الأسد بضربة من سيف الشاعر ويخرّ الأسد على الأرض ليتكلل المشهد برثاء الشاعر لخصمه البطل ويمتزج الحوار والسرد القصصي في هذه اللوحة البطولية بين الليثين.

ويحاور "عنترة بن شداد" فرسه الذي يتحول الى مشارك انساني أو صديق مقاتل يؤكد عمق العلاقة الفروسية الانسانية بينه وبين فرسه رفيقه في ساحات القتال فيقول:

**يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنّها ... أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ**
**ما زلتُ أرميهم بثُغرةِ نحرِهِ ... ولَبانِهِ حتى تسربَل بالدِّمِ**
**فازورَّ من وَقْعَ القنا بلَبانهِ ... وشكا إليَّ بعبرةٍ وتَحَمْحُمِ**
**لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ... أو كانَ يدري ما جوابُ تكلّمي**(١)

ان النص يكشف عن مدى العلاقة الانسانية والمشاركة الوجدانية بين الشاعر وفرسه، فعنترة لم يكن يهتم بفرسه فحسب بل جعله صديقاً

---

(١) الديوان: ٢١٦.

ورفيقاً له في ساحات القتال. فالحوار هنا جاء متناغما مع لغة الشاعر المرهفة " شكى، اشتكى" وتصوير حركة الفرس والطعنات التي تناوشته، فاللحن الحزين قد طغا على حوار الشاعر مع فرسه فيزداد الايقاع عنفاً والموسيقى يسيطر عليها اللحنان: اللحن القبلي في الأفعال والتذمر وصيحات القتال والدعوى الى مشاركة عنترة، واللحن الفروسي الذي يتمثل في تصوير فرسه وحركته والطعنات فيه، وكأننا نسمع صهيله وشكواه وصوت سقوط الرماح عليه ونشعر بذلك الأيقاع الجميل الحزين عندما يتناول الشاعر الحوار بينه وبين فرسه(١)".

وبذلك يكون الشاعر وحصانه جسداً واحداً وليس من الغريب أنْ يخلع عليه شعوراً انسانياً انطلاقاً من عمق المشاركة والملاصقة بينهما.

ويقول الشاعر "امرؤ القيس" محاوراً الذئب:

**وماءٍ كلونِ البَوْلِ قد عادَ آجناً ... قليلٌ به الأصوات في كلاٍ مَحْلِ**
**لقيتُ عليه الذئبَ يعوي كأنّهُ ... خليعٌ خَلا من كُلِّ مالٍ ومن أهْلِ**
**فقلتُ لهُ يا ذئبُ هل لكَ في أخٍ ... يُواسي بلا أثْرى عليكَ ولا بُخْلِ**
**فقالَ هداكَ اللهُ إنّكَ إنمّا ... دعوْتَ لما لمْ يأتِهِ سَبُعٌ قبلي**
**فلستُ بآتيهِ ولا أستطيعُهُ ... ولاكِ اسقني أنْ كان ماؤك ذا فضلِ**
**فقلتُ عليكَ الحوضَ إنّي تركتُهُ ... وفي صَفْوِهِ فضلُ القلوص من السَّجلِ**
**فطرّبَ يستعوي ذئاباً كثيرةً ... وعدَّيْتُ كُلُّ من هواهُ على شُغْلِ(٢)**

ان حوار الشاعر امريء القيس مع ذئبه يعكس عمق الأسى ومدى الغربة التي يعاني منها الشاعر متمثلا بالابتعاد عن الأهل والشعور بالحرمان وفقدان المال والسلطة مما أثار حزنه وألمه وهو يدعو ذئبه الى

(١) نقد النص: ٨٩.
(٢) الديوان: ٣٦٣.

المواساة والمشاركة الأنسانية، لأن الذئب يعاني أيضا من ألم الغربة في بيداء مقفرة، فجاء الحوار لطلب المؤاخاة (هل لك في أخ) ليكون بديلاً ومشاركاً انسانياً فاعلاً في عمق الأسى وبديلاً عن الأهل والأصدقاء.

فالتفرد والضياع كانا سبباً فاعلاً في اجراء هذا الحوار التقابلي (فقلت له، فقال) الذي ولّده المكان والزمان والغربة القاتلة.

فالذئب هنا يبدو معادلاً موضوعياً للشاعر يعكس انفعالات الشاعر وعاطفته مما دعاه الى ارساء قواعد المؤاخاة والمشاركة الأنسانية على الرغم من الفوارق التي تجعل المؤاخاة بين الشاعر والذئب مستحيلة؛ بسبب عدوانية الذئب وتهديده المباشر للشاعر، لذلك يبدو الحوار ليس حواراً واقعياً يتقبله العقل بل هو عنصر من عناصر الخيال، فأي إخاء يجمع بين هذين النقيضين وأية دعوة الى التآخي تجمع بين عدوانية وشراسة الذئب المتوحش في هذه البيداء المقفرة وبين الشاعر مما يؤكد ذلك رفض الذئب لهذه المشاركة وهذه المؤخاة مستغرباً:

**فقال هـداكَ اللهُ إنـكَ إنّمـا          دعوتَ لما لم يأتِهِ سـبُعٌ قبلـي**[1]

ويحاور الشاعر "امرؤ القيس" شاكياً له همه واحزانه وكأنه ند له دون ان ينسى اضفاء هذا الهم على الذئب بالذات عبر تصوير حزين فيقول:

**فقلتُ له لما عـوى إنَّ شـأننا          طويـلُ الغنـى ان كنـت لمـا تَمَـوّل**

**كلانا إذا ما نـالَ شـيئاً أفاتَـهُ          ومن يحترث حرثي وحرثَـكَ تُمـوَّلَ**[2]

فالشاعر يرفع عن نفسه مسؤولية التراجع والتخاذل ويصور نضاله في سبيل المطمح البعيد، كما ان ركوبه الأخطار بغية الوصول الى ما

(١) الديوان: ٣٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧٢.



يريد مفجراً أضواء البطولة وعدم الإنهزامية حول شخصه حتى لايتعرض للوم لائم في ذلك الفشل أو الخذلان.

ويجري الشاعر "عامر بن الطفيل" حواراً انسانياً رائعاً مع فرسه في ساحات القتال فيقول:

**وقد علم المزنوق أنّي أكرُّهُ عشيةَ فيف الريح كرَّ المُشهّرِ**
**إذا أزورَّ من وقع الرماحِ زجرتُهُ وقلتُ له أرجع مقبلاً غير مُدبرِ**
**وأنبأتُهُ إنّ الفرارَ خزايةٌ على المرءِ ما لم يُبلَ عذراً فيُعذَرِ**
**ألستَ ترى أرماحهم فيَّ شُرَّعاً وأنتَ حصانٌ ماجدُ العرق فاصبرِ**
**أردتُ لكيما يعلمُ الله أنّني صبرتُ وأخشى مثل يوم المشقَّرِ**(١)

في معركة فيف الريح انطلق جواد الشاعر المسمى "المزنوق" وكان الشاعر يحثه على الإقدام وعدم التراجع لأن الفرار خزي وعار من وجهة نظر الشاعر وفي عرف الفروسية الذي اعتاد عليها العرب في ساحات القتال وكأن الشاعر يتسامى بنفسه عن الخصال المعيبة بحق فارسٍ شهدت له ساحات المعارك بالبطولة والشجاعة الفذة فهو لايريد لهذا الفارس التراجع والفرار بل الثبات والصبر فأسقط ما في نفسه على فرسه، فالفرس مرآة عاكسة لما يريده الشاعر تتحمل كل صور الإظهار الذاتي له وكأنه صورة من نفسه. وقد ابتعد الشاعر عن وصف الفرس وقدراته من حيث السرعة والأصل واللون والخواص الجسدية المتناسقة بل حاول التركيز على صبره وثباته كصبر فارسه وثباته في هذه المعركة. ان تفاصيل الصورة الوصفية للجواد لم تظهر بل عمد الشاعر الى اظهار الصفات المعنوية والابتعاد عن الجزئيات التي تدخل في اطار الوصف الجسدي لهذا الجواد.

---

(١) الديوان: ١٠٧.

وكأنه اسقط ايجابيات الأنت على الأنا وهذا الاسقاط الذي يسمى في علم النفس بالاسقاط العكسي قد عزز الصورة في اطلاق الصفات المثالية التي تكشف عن طموحه العالي في الثبات في ساحات القتال فحاول اسقاطها على فرسه؛ لان المغامرة تستحق الصبر والإقدام وليس التراجع والفرار.

وحين تتشابه المعاناة والنواح والحزن يعمد الشاعر "صخر الغي" الى محاورة الحمامة النائحة بعد فقدان ابنه فيقول:

**وما إنْ صوتُ نائحـــةٍ بليـــلٍ ... بســـبْلَل لا تنـــامُ مـــع الهُجـــودِ**

**تجهنا غـــادييْني فســـايلتني ... بواحـــدةٍ واســـألُ عـــن تليـــدي**

**فقلتُ لها فأمـــا ســـاقُ حُـــرٍّ ... فبـــانَ مـــع الأوائـــلِ مـــن ثمـــودِ**

**وقالت لن ترى أبـــداً تليـــداً ... بعينـــكَ آخـــر الـــدّهرِ الجديـــدِ**

**كلانـــا رد صـــاحبُهُ بيـــأسٍ ... وتأنيـــبٍ ووجـــدانٍ بعيـــدِ**(١)

ان حالة الشاعر هنا شبيهة بحالة الحمامة النائحة الثكلى التي فقدت فرخها، فهي مشارك وجداني في الحزن والفقد فالشاعر والحمامة كلاهما قد فقدا ابنهما، فالحمامة لاتنام وتسأل الشاعر عن فرخها كما يتراءى له وبدوره يسألها عن ابنه "تليد" فيكون الجواب واحداً وهو الفقد والفراق الذي لا عودة ترتجى منه فهو يعكس حزنه وآلامه على صوت الحمامة النائحة بايقاع نفسي مؤثر فالحوار مع الحمامة والمشاركة في الحزن يضفيان على النص جواً نفسياً حزيناً يبعث الآهات في كل بيت من أبيات النص كما انهما يعكسان اليأس والتشاؤم من حالة اللاعودة والفقد الأبدي.ويسقط الشاعر الملتمس أحزانه وحنينه الى وطنه العراق الذي فارقه مجبراً كارهاً ليكون في مأمن من غدر "الملك عمرو بن هند" على ناقته في حوار جميل بينه وبين الناقة فيقول:

---

(١) شرح أشعار الهذليين، جـ١/ ٢٩٣.

أنّى طربتِ، ولم تُلحَي علــى طــربٍ ... ودونَ إلفــــكِ أمــــراتٌ أمــــاليسُ
حنّت إلى نخلةِ القُصوى فقلــتُ لهــا ... بَسْــلٌ عليــكِ ألا تلــك الــدهاريسُ
أمي شآميةٌ – إذ لا عــراقَ لنــا – ... قومــاً نــوُدّ هُــمُ إذْ قومُنــا شُــوسُ
لن تسـلكي سُـبُلَ البوبـاةِ مُنجـدةً ... ما عاشَ عمرو، وما عُمِّـرتَ قـابوسُ[1]

ويبدو الحوار مع الناقة حواراً متخيلاً يكشف عن ألم الشاعر وحرمانه من وطنه (اذ لاعراق لنا) فالشاعر قد فارق وطنه سنوات عدة عانى فيها ألم الغربة والحسرة على فقد الأحبة والأهل والديار الذي عبر عنه من خلال حنين ناقته الى مرابعها، كما يكشف النص عن اليأس في العودة ما دام هذا الملك وأخوه يحكمان هذا البلد كما انه يجد تعزية في بلد أخرى هي بلاد الشام التي يقيم فيها للتخفيف عن آلامه.

### ٣. الحوار مع الأصحاب:

ونجد الشاعر "متمم بن نويرة" يحاور صاحبه في مرثية أخيه "مالك بن نويرة" فيقول:

لقد لامني عند القبور علـى البكـا ... رفيقي لتذراف الـدموع السـوافك
أمن أجل قبرٍ بـالملا أنـت نـائحٌ ... على كلِّ قبرٍ أو علـى كـلِّ هالـكِ؟
فقلتُ له: إنّ الشجا يبعـث الشـجا ... فدعني فهـذا كلّـهُ قبـرُ مالـكِ[2]

فالحوار الذي جرى بين الشاعر "متمم بن نويرة" ورفيقه يقوم على ابعاد المشاركة الانسانية الفاعلة والتجاوب مع آلام الأخرين فالدموع التي يذرفها الشاعر على كل قبر انما هو انسحاب وجدان الشاعر الى الآخر

---

(١) ديوان شعر الملتمس: ٨.

(٢) الأمالي: جـ ٢/١.

والتجاوب معه " ان الشجا يبعث الشجا " فالشجا الأول واقع موضوعي اما الثانية فهي الداخلي المولود من هذا الخارج او الواقع(١).

وحين يقف الشاعر "طرفة بن العبد" على اطلال الحبيبة وديارها الخالية من الأهل يتحاور مع اصحابه فيقول:

**لخولــةَ أطــلالٌ ببُرقــةَ ثَهْمــدِ تلوحُ كباقي الوشمِ في ظــاهر اليــدِ**
**وقوفاً بها صحبي عليَّ مطــيَّهم يقولون لا نهلــك أســىً وتجلَّــدِ(٢)**

فالأصحاب يطلبون من الشاعر الصبر والتجلد محاولة منهم لمساعدة الشاعر والتخفيف عن آلامه واحزانه. تلك الاحزان التي دعتهم الى التجاوب الإنساني والمشاركة الوجدانية معه " لاتهلك أسىً وتجلد " ولكن الشاعر كان منشغلاً بحزنه على تلك الديار التي اثارت فيه عمق الأسى، فكان الحوار يعتمد على طرف واحد وهو الآخر " الأصحاب " لكنه لايخلو من البعد الإنساني الذي أبداه هؤلاء الأصحاب في تخفيف أحزان الشاعر وآلامه.

وعلى الضد نرى الشاعر "امرأ القيس بن حجر" يتولى مهمة التخفيف من آلام صاحبه حين يراه باكياً شاكياً غربته وحنينه الى قومه فيقول:

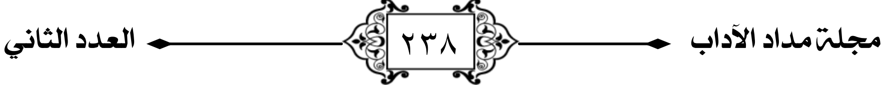
**بكن صاحبي لما رأى الدربَ دونَــه وأيقــنَ أنّــا لاحقــانِ بقيصــرا**
**فقلــتُ لــه لا تبــكِ عينُــكَ إنّمــا نُحاولُ مُلكــاً أو نمــوت فنُعــذرا**
**وإنــي زعــيمٌ إنْ رجعــتُ مُملّكــاً بسيرٍ ترى منه الفُرانِــقَ أزورا(٣)**

---

(١) مقالات في الشعر الجاهلي:٣٤٩.

(٢) الديوان: ٥.

(٣) الديوان: ٦٥.



فالشاعر هنا يحاول التخفيف عن صاحبه الشاعر "عمرو بن قميئة" حين رآه يبكي لفراق الأهل والديار، وكان الشاعر "امرؤ القيس" قد مر ببني يشكر في سيره الى "قيصر" ملك الروم فسألهم: هل فيهم شاعر..؟ فذكروا له "عمرو بن قميئة" اليشكري" فدعاه ثم استنشده فأنشده وأعجبه، فاستصحبه "امرؤ القيس"، فأجابه الى صحبته.

فحين بكى الشاعر "عمرو" حنيناً الى بلاده خاطبه "امرؤ القيس" ونهاه عن البكاء محاولاً التخفيف عن آلامه بذلك الحوار الأحادي الجانب.

**٤. الحوار مع الأبناء:**

في مقطوعة رائعة تعج بالمشاعر الأنسانية يذكر الشاعر "سلامة بن جندل" عن "ابنته" التي كانت تحاوره وتناشده البقاء معها وعدم تركها وحيدة بعد ان عزم على الرحيل قائلا:

**تقول أبنتـــي: إنَّ انطلاقـــك واحــداً الى الرِّوع يوماً تــاركي لا أباليــا**

**دعينا من الإشفاق، أو قــدّمي لنــا مــن الحــدثانِ والمنيّـــةِ راقيــا**

**ستتلفُ نفسي، أو ســأجمعُ هجمـــةً ترى ساقييْها بألمــانِ التراقيــا(١)**

فالشاعر هنا يعبر عن حنين ولهفة "ابنته" واشفاقها وخوفها من البقاء وحيدة لكثرة سفر أبيها عنها اما في الحروب والأسفار والغزوات مستخدماً أسلوب الحوار الذي يعكس من خلاله خلاصة تجاربه في الحياة وفلسفته التي يؤمن بها من ان الموت قدر لابد منه وعلى الإنسان مواجهته بشجاعة الرجال لكننا نجد في هذا الحوار نوعاً من الصلابة والقسوة يعززه قول الشاعر "دعينا من الإشفاق" قسوة تنم عن ألم وحزن فهو لايستطيع مواجهة الفتاة او الرضوخ لطلبها مما نجد في قوله هذا تصلباً في الموقف في لحظة حرجة أثارت آلام الشاعر وأحزانه وعدم امكانية تحقيق مطلب "ابنته".

---

(١) الديوان: ٢٠٠.

وفي محاورة للشاعر "الأعشى" مع "ابنته" يتطرق الى المعنى نفسه الذي ذكره الشاعر "سلامة بن جندل" مؤكداً لهفة الإبنة وحزنها لقرب رحيل والدها وطلب شفاعة قومها وأقاربها من أنْ يمنعوه من الرحيل والانصياع لرغبتها في البقاء لكن دون جدوى لكنه يدعوها الى التصبر والدعاء والإيمان بحتمية الموت الذي يقع على البشر دون انذار قائلا:

**تقولُ بنتي: وقد قرَّبْت مُرتحلا     يا رَبِّ جنِّب أبي الأوصابَ والوَجَعَا**

**واستشفعت من سَراةِ الحيّ ذا شرفٍ     فقد عصاها ابوها والذي شَفَعَا**

**مهلاً بُنيَّ فإنَّ المرءَ يبعثُهُ     هَمٌّ إذا خالطَ الحيزوم والضِّلَعَا**

**عليكِ مثلُ الذي صلَّيتِ فاغتمضي     يوماً فإنَّ لجنبِ المرءِ مضطجعا**

**واستخبري قافِلَ الرُّكبان وانتظري     أوبَ المُسافرِ إن ريثاً وإنْ سَرَعا**(١)

ويخاطب الشاعر "الأعشى" ابنته بمنتهى اللين ورقة القول ليهديء روعها ويسكن خوفها بتذكيرها بقصة "زرقاء اليمامة" اذ غاب عنها أخوها، حين رحل يلتمس عون "حسان"، فظلت تترقب عودته في شوق وأمل بنظرات ملؤها الجزع والاشفاق. فالشاعر هنا يبث في نفس "ابنته" التفاؤل والأمل بعودة الغائب وعدم التشاؤم فيقول:

**كوني كمثل التي إذ غابَ وافدُها     أهدتْ له من بعيدٍ نظرةً جزِعا(٢)**

ويرسم الشاعر "الحطيئة" مشهداً تتحرك منه الأحداث في صحراء موحشة قاسية تتجسد فيها ملامح الابداع الشعري والتركيز على الحالة النفسية التي فرضتها الحالة الاجتماعية على شخوص الحدث بقوله:

**وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مرملِ     بتيهاء لم يعرف بها ساكنٌ رسما**

**أخي جفوةٍ فيهِ من الإنس وحشةٌ     يرى البؤسَ فيها من شراسته نُعمى**

(١) الديوان: ١٠١

(٢) المصدر نفسه: ١٠٣.

**وأفردَ فــي شِـعْبٍ عجــوزاً إزاءهــا    ثلاثـــــةُ أشـــــباحٍ تخــــالهُمُ بَهْمــــا**
**حفاةٌ عراةٌ مـــا اغتــذوا خبــزَ ملَّــةٍ    ولا عرفــوا للبُــرِّ مُــذْ خُلقــوا طعْمــا**
**رأى شـــبحاً وسْــطَ الظــلامِ فراعَــه    فلمـــا بـــدا ضـــيفاً تســوَّرَ واهتمــا**[1]

في تلك البيداء الموحشة يشتد قلق "الحطيئة" الجائع لحظة اكتشف انّه حيال ضيف كان يحسبه شبحاً وسط الظلام فيعصف به الألم ازاء زوجته العجوز وأولاده الثلاثة والحرج الذي اصابه لحظة رؤية الضيف فنجده أمام ثنائية متناقضة هي الفقر المدقع ونزول الضيف طالباً القرى والخروج من هذا المأزق النفسي المؤلم صعب للغاية في عرف اجتماعي يفرض اشباع الجائع واكرام الضيف. وكانت أولى خطوة اقتضتها الأعراف الاجتماعية الاهتمام بهذا الضيف بعد زوال الخوف والرعب الذي أصابه بعد أنْ تيقن بأنّ القادم ضيف لاشبح مخيف فجاءت الكلمات " رأى شبحاً، راعه، بدا ضيفاً، تسوّر، اهتما " متناسقة المعنى والدلالة لتؤطر مجرى الحدث والحوار الذي جرى بينه وبين ابنه الذي عرض على أبيه أنْ يذبحه ويقدم لحمه كرماً للضيف فيقول:

**وقـــال ابنـــه لمـــا رآهُ بحيــرةٍ    أيا أبتِ اذبحني ويسِّــرْ لــه طُعْمــا**
**ولا تعتذر بالعُدمِ علَّ الذي طــرا    يظـــنّ لنـــا مـــالاً فيوســـعنا ذَمّـــا**
**وقال: هيا رباه ضــيفٌ ولاقِــرى    بحقك لا تحرمهُ تاالليلــةَ اللحمــا**[2]

فالحوار الذي جرى بين "الحطيئة" و "ابنه" يكشف لنا ذروة السمو الانساني النبيل الذي يرتقي بالنفس الانسانية الى أسمى مدارج الابداع والرفعة وعمق القيم الاجتماعية الأصيلة، فالتضحية بالنفس من اجل الحفاظ على الذات العربية المليئة بالقيم والمباديء التي توارثها الأبناء عن الآباء

(١) الديوان: ٣٩٦.
(٢) المصدر نفسه: ٣٩٧.

نحن الآن أمام ولد جائع يقدم نفسه قرباناً لكرامة أبيه في مشهد نفسي يبعث التوتر والألم في نفس المتلقي والمتتبع لأحداث هذه القصة، في مشهد يتجلى فيه الصفاء النفسي والشفافية الروحية النبيلة بعيداً عن السرد المطول وهذه هي قمة البلاغة وايصال المعاني بأقل قدر من الألفاظ وحوار موجز يؤدي غرضه ومعناه يأخذنا في سمو انساني رائع تتجلى فيه النفس الانسانية بأبهى صورها. ان الحوار الذي اتخذه الشاعر وسيلة لتوصيل احساسه بالألم وعمق الأسى ليكون الهدف منه التأثير في المتلقي.

**٥. الحوار مع الجماد:**

في قصائد الشعراء في عصر ما قبل الأسلام نجدهم يتحاورون مع الجماد. وهذا الشاعر "امرؤ القيس" يحاور الليل فيقول:

**وليلٍ كموجِ البحر أرخـى سـدولهُ    علـيَّ بـأنواعِ الهمـومِ ليبتلـي**
**فقلـتُ لـه لمـا تمطَّـى بصُـلْبه    وأردفَ أعجـازاً ونـاءَ بكلكِـلِ**
**ألا أيّها الليـلُ الطويـلُ ألا انجـلِ    بصبحٍ وما الأصباحُ فيـكَ بأمثـلِ**
**فيالـك مـن ليـلٍ كـأنَّ نجومَـهُ    بكلِّ مُغـارِ الفَتْـلِ شـدت بيـذبُلِ**
**كأنَّ الثريّا عُلقَّـتْ فـي مصـامِها    بأمراس كتّانٍ الى صُـمٍّ جَنَـدلِ(١)**

فالحوار مع الليل هنا يأخذ شكلاً آخر، فهو حوار أحادي الجانب، ان الشاعر يحاور جماداً اصماً لايعي، فالليل قد جاوز مداه في الطول والامتداد وهذا يعني تكثيف الهموم والأحزان وامتدادها بالنسبة لشاعرنا المتألم الذي أرهقته الأحزان فبدا الليل طويلاً ممتدا لانهاية له كالبحر الهادر وكالجمل الذي يتمطى بصلبه وينوء بكلكله ليلقي بالهموم المضنية على صدر الشاعر، وياله من ليل طويل تفاقمت فيه الآلام.

(١) الديوان: ١٨.

فقد توقفت النجوم عن سيرها كأنما ربطت بحبال محكمة الفتل الى صخور ضخمة ثابتة مما يعكس مدى القلق والتوتر النفسي الذي كان يطبق الشاعر اثناء ليله الطويل، لذلك يتمنى الشاعر زوال الليل ويترقب مجيء النهار ليحمل له الأماني والأمال العذبة، فالشاعر يحاور ليله الطويل وبطلب منه الانجلاء والكشف ليتخلص من عبء ثقيل يرزح فوق كاهله، والحوار هنا يجمع بين الحسي والايحائي فبتجربة شعورية واحدة تصبح كأنها كيان عضوي واحد اسبغ عليها الشاعر موقفاً انسانياً رائعاً واحساساً ذاتياً صادقاً وكأنه يحاور انساناً ليرأف به. فالشاعر هنا يحاول أنسنة الجماد والتكلم معه في صورة عاطفية تعكس صدق التجربة الشعورية للشاعر. فالتوسل والاستغاثة لمستبد قد طغى بحكمه على الشاعر ليكون شريكاً في الظلم يبدو الشاعر أمام حاكمه مذعناً وهو غير آبه، كما ان البحر الطويل الذي اختاره الشاعر لقصيدته قد شارك هو الآخر في طول مأساته وتتابع آهاته وشكواه وكأنه قد تناغم هو الآخر ليلائم عاطفة الشاعر الحزينة.

ويخاطب الشاعر "المهلهل بن ربيعة" طلله الذي عفا واندثر ولم يبقَ منه سوى الأوتاد والأثافي فغدا خرباً لاحياة فيه مما أجبر أهله على الارتحال فيقول:

**هل عرفتَ الغداةَ من أطلالٍ ... رَهْنُ ريحٍ وديمةٍ وعِزالِ**
**يستبينُ الحليمُ فيها رسوماً ... دارساتٍ كصنعةِ العُمّالِ**
**قد رآها وأهلها أهلُ صدقٍ ... لا يُريدونَ نيّةَ الارتحالِ**
**فسألتُ الديار: هل من أنيسٍ ... فتصادمتْ وهِيجّتْ بلبالي**
**ما بها غيرُ أشعثِ الرأسِ فَردٍ ... وأوارٍ قُدحْنَ من أحوالِ**[(١)]

(١) المهلهل بن ربيعة التغلبي، حياته وشعره: ٣٠١.

ان حوار الشاعر "المهلهل بن ربيعة" مع طلله يعكس الحالة النفسية التي يمر بها الشاعر بعد مقتل أخيه، فالديار صماء لاتجيب تهيج الأسى في نفسه لكنها تنطق بصورة غير مباشرة بانها قد كانت صورة من صور الماضي السعيد المفقود حافلة بالامجاد، ولأن الماضي المندثر لاينبعث من جديد فالشاعر يهوي في معاقل اليأس والحرمان ويطالعنا بحوار لاطائل منه يبعث على اليأس فالحلم لايستحيل الى حقيقة والزمن لايعود الى الوراء ويبقى الشاعر مترجحاً بين الأمل واليأس في لحظة الالهام والتخيل يستشرف من خلال حواره مع الطلل الأصم فردوسه المفقود وعالم الذكريات الجميلة فالطلل عند الشاعر الجاهلي جزء لايتجزأ من حياته وهو الحياة نفسها، فهو يذكره بعالم الصبا ونقطة انطلاق تربط الماضي بالحاضر كما انه يمثل الصراع الدائم بين الحياة والموت وهذا نراه يتجسد واضحاً في معلقة "امريء القيس" التي يقول في مطلعها:

| | |
|---|---|
| **الأعِمْ صباحاً أيّها الطلَلُ البالي** | **وهل يعِمَنْ من كان في العُصُرِ الخالي** |
| **وهل يعِمَنْ إلاّ سعيدٌ مُخلَّدٌ** | **قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ** |
| **وهل يعِمَنْ من كان أحدَثُ عهدِهِ** | **ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ أحوالِ** |
| **ديارٌ لسلمى عافياتُ بذي خالٍ** | **ألحَّ عليها كلُّ أسحَمَ هطّالِ** |
| **وتحسَبُ سلمى لا تزالُ ترى طلا** | **من الوحشِ أو بيضا بميثاء محلالِ** |
| **وتَحَسبُ سلمى لا تزالُ كعهدنا** | **بوادي الخزامى او على رَسٍّ او عالِ** |
| **ليالي سلمى اذ تُريكَ منصَّباَ** | **وجيداً كجيدِ الرِّئمِ ليسَ بمعطالِ(١)** |

هنا يقف الشاعر أمام تلك الاطلال الدارسة ويبدأ بتحيتها ويطلب لها السلامة لكنها تأبى الجواب؛ لأنَّ أهلها رحلوا عنها وآلت الى الخراب والفناء بعد أنْ كانت عامرة بهم ترفل بالحياة والحيوية وما بقي منها سوى

(١) الديوان: ٢٧.

الاحزان والآلام لأنها أصبحت مقفرة لاحياة فيها.. وبعد هذا المشهد الدرامي الحزين يركن الشاعر الى الحديث عن الفناء فيقول: وهل يسعد بالنعيم الا من كان مخلدا لايلحقه الموت الذي هو سنة الحياة ونهاية الانسان التي لابد لها أنْ تأتي.

فالزمن كفيل بفناء أي شيء كما فعل بتلك الديار الدارسة التي كانت تزهو بأهلها وساكنيها، فالأمطار قد فعلت فعلها وأصبحت قوة تدميرية مسببة في تغيير معالم تلك الديار ولكن الشاعر لايستسلم لهذا الفناء القاتل، فالمطر الذي كان سبباً في خراب الديار هو نفسه القوة التجديدية الباعثة على الحيوية فقد جرت سيول الماء ونبت الكلأ والعشب وتجمعت الحيوانات وتوالدت وانبعثت الحياة من جديد فالمطر عامل موت وفناء كما انه عامل حياة وتجدد، فالصراع المتمثل في الحياة والموت يستحوذ على تفكير الشاعر انعكس في رؤية الطلل وما حصل فيه من دمار وخراب وعودة الى الحياة من جديد هذا هو ديدن الدهر وفعله بالأشياء على مر الأزمنة.

**٦. الحوار مع الذات:**

الذات مصدر الهواجس والقلق عند الشاعر فيحاورها ويبثها أشجانه وهمومه وهي صماء لاتجيبه، حين لايجد من يبثه همومه وشكواه بين الناس، وهذا الحوار الداخلي مع الذات انعكاس لصراع او حيرة في اتخاذ قرار ما في موقف معين. ومن تلك المحاورات التي تجري بين الشاعر وذاته قول الشاعر "أوس بن حجر" في رثاء "فضالة بن كلدة" فيقول:

**أيتها الـــنفسُ أجملـــي جَزَعَـــاً ... إنَّ الـــذي تحـــذرينَ قـــد وَقَعَـــا**
**إنَّ الذي جمع السَّـــماحةَ وألـــذَّ ... جـــدةَ والحـــزمَ والقُـــوى جُمَعَـــا**
**الألمعيُّ الذي يظنُّ لـــك الظّـــنَ ... كـــأنْ قَـــدْ رأى وقَـــدْ سَـــمَعا**(١)

(١) الديوان: ٥٣.

ويعد هذا الحوار مع الذات وسيلة للتعزية والتأسي لفقد شخصية عظيمة لها وزنها عند الشاعر تعد من أشراف العرب الذين يجمعون كل الصفات التي تؤهلهم لنيل السيادة والشرف مثل الكرم والشجاعة وكثير من الصفات التي يعتد بها العرب في الجاهلية، فالشاعر يحاور ذاته ويدعوها للتصبر وعدم الجزع؛ لأنَّ الموت واقع لامحالة، ولايفيد الحذر اذا وقع المحذور.

وتحاور الشاعرة "الخنساء" بانها لن تذوق طعم الراحة ابداً بعد فقد أخيها "صخر" ولن تستريح الا حين ترفع صوتها بالبكاء والنواح حزناً عليه وحتى لو انها شربت ماءً قراحاًفان ذلك لن يطفيْ ما في فؤادها من حرقة وحزن، لأن فؤادها لم يبلل بريق من شدة حرارته فتقول:

**لا تخــلْ أنّنــي لقيــتُ رُواحــا　　بعد صــخرٍ حتــى أبــينَ نِوَاحــا**
**لا تخــالي أنّــي نســيتُ ولا بُــلَّ　　فــؤادي ولــو شــرِبْتُ القَرَاحــا**
**دَقَّ عظمي وهاضَ منّــي جَنــاحي　　هُلْكُ صخرٍ فمــا أطيــقُ بَرَاحــا**[1]

ان هذا الحوار مع النفس يمثل نوعاً من الفراغ الذي تركه "صخر" في نفس الشاعرة بعد ان فارق الدنيا، فهي لاتنسى مصاب أخيها ما حييت، فنفسها هي أقرب اليها تحاورها وتسائلها. فالذات اصدق شيء بالنسبة للشاعرة فهي التي تعرف مصدر الحزن والاسى والقلق الذي ينتابها ولهذا البعد النفسي وما يحمل من دلالات تعبيرية ألهمت الشاعرة نوعاً من التعزية بهذا المصاب الجلل بعد القلق الذي عاشته " لأن القلق ظاهرة لها علاقة بالنفس الانسانية في شتى حالاتها ويأخذ التعبير عنها كثير من الأشكال، ومنها الفن عامة والشعر خاصة[2]".

---

(١) ديوان الخنساء: ٢٤٠.

(٢) آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي: ١٠٩.

ولتزايد حالة القلق عند الشاعرة أثر كبير في حالة الابداع الشعري عندها بعد أنْ أصبح القلق من حالة الفقد مرتكزاً اساسياً للتنامي العاطفي والكبت النفسي والحزن السرمدي الذي لايفارقها " فالقلق هو الشرط الأساسي للابداع الفكري والفني، والسمو الشخصي والتضحية، وبكل ماهو فائق في التأريخ البشري والرغبة في ازالة القلق انما تعني الرغبة في ازالة العاطفة التي هي رمز الحرية والقوة البشرية وميزة الإنسان على كل ماعداه من المخلوقات(١)".

ويحاور الشاعر " أبو ذؤيب الهذلي" زوجته "أميمة" ويتقاسم معها أحزانه التي ترجمها لوعة وحسرة وبكاءً فنراه يقول في مطلع رثائه:

**أمِنَ المنـــونِ وريبهـــا تتوجّـــعُ        والدهرُ ليسَ بمعتبٍ مَـــنْ يجـــزعُ**
**قالتْ اميمةُ ما لجســمكَ شـــاحباً        مُنْذُ ابتذلتَ ومثلُ مالـــكَ ينفـــعُ(٢)**

ويكشف الحوار بين الشاعر وزوجته "أميمة" عمق الأسى وعظم المصيبة أثر فقدان بنيهم الخمسة، وبعد ذلك التساؤل مع زوجته عن حاله التي تغيرت من كثر البكاء وعينه التي جفاها النوم فيجيبها قائلا:

**فاجبتها أنَّ مـــا لجســـمي أنّـــهُ        أودى بنيّ مـــن الـــبلادِ وودعـــوا**
**أودى بنيَّ واعقبـــوني حســـرةً        بعـــدَ الرقـــادِ وعبـــرةً لا تقلـــعُ(٣)**

ويرى الشاعر ان البكاء من السفه، فهو لاينفع وهو هنا لايريد أنْ يفني دموعه عليهم بل ان ذكراهم خالدة في نفسه لايستطيع نسيانهم لعظم المصيبة وألم الفقد وعينه من بعدهم تنزف دماً لا دمعاً وكأنها فقئت بشوك فأوجعها وآلمها وهذا نتيجة حزنه وأساه على أولاده فيقول:

---

(١) آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي: ١١٠.
(٢) شرح أشعار الهذليين: ج١: ٤.
(٣) المصدر نفسه: ج١: ٥

**ولقد أرى أنّ البكــاءَ ســفاهةً ... ولسوف يولع بالبكى مــن يفجــعُ**

**فالعينُ بعــدهُمُ كــأنَّ حــداقَها ... سُمِلتْ بشوكٍ فهي عورٌ تــدمعُ(١)**

ضمن هذا المنظور فالنص قد اكتسى بابعاد مأساوية تغلف النص بأكمله وتضفي عليه مسحة من ظلال الحزن والتمزق والأسى لكنه لايخلو من حالات التأمل الإنساني في حتمية الوجود وارادته الممتدة على سائر البشر، فالشاعر لايجد متنفساً سوى البكاء والتفجع على الرغم من انه يرى في هذا البكاء سفاهة لانه لاينفع فالمحذور قد وقع لكن عاطفة الشاعر أبت عليه الا البكاء الذي لاطائل منه.

ويحاور الشاعر "النابغة الذبياني" نفسه فيقول:

**أقولُ والنجمُ قــد مالــت أواخــرُهُ ... إلى المغيــب تبَّــينْ نظــرةً حــارِ**

**ألمحةٌ من سنا برقٍ رأى بصــري ... أم وجهُ نُعْمٍ بَدَا لــي أم ســنا نــارِ**

**بل وجهُ نُعْمٍ بــدا والليــلُ معتكــرُ ... فلاحَ من بينِ أبــوابٍ وأســتارِ(٢)**

فالنابغة يسأل نفسه هل ما رآه سنا برق، ام وجه "نُعْمٍ" حبيبته في هذا الليل البهيم وقد مال النجم الى المغيب، فهو في شك من أمره في حقيقة هذا البريق النوراني الذي ألهب بصره بسناه، ان هذه الصورة من عدم اليقينية تعكس رغبة الشاعر في استحضار حبيبته لرؤيتها بصورتها الملائكية وكأنه قديس يتطلع الى شيء مقدس قد رسم بعناية في حالة التضرع والخشوع ثم تجيبه ذاته بان مارأى حقيقة لاخيال. وهذا دليل واضح على حضور الحبيبة في ذهنه وتفكيره وتؤكد قدرته على ترتيب ذاكرته ليعطي الصورة تشخيصاً واضحاً يخدم الحدث بأدق تفاصيله وجزئياته.

(١) شرح أشعار الهذليين: ج١: ١١

(٢) الديوان: ٢٠٣.



ويبقى الحوار مؤهلاً للكشف عن دلالات نفسية تدعو للتأمل والدراسة تمنح المتأمل قدرة على استجلاء الحدث بكل صيغه وموضوعاته كما انه يعد معياراً لاستخلاص تجربة الشاعر وقدرته الابداعية في القصيدة، فضلاً عن اتاحة الفرصة للمتلقي في متابعة الحدث واستيعابه وانشداده التام للبحث عن رؤية الشاعر من خلال النمط الحواري الذي يقدمه. فالحوار وسيلة مهمة لتوصيل احساس الشاعر وافكاره الى المتلقي بهدف التأثير فيه فقد جاء مختلفاً تبعاً لاختلاف الحدث والتجربة التي يمر بها الشاعر.

ويلجأ الشاعر "امرؤ القيس" الى حوار مع ذاته نتيجة للصراع النفسي الذي يعانيه فيخاطب نفسه بعد أنْ ألم بها الشوق حيث وصل الى ذروة الحزن لبعد الحبيبة "سليمى" عنه بعد ارتحالها فيقول:

**سَمَا لكَ شوقٌ بعدما كـان اقصـرا    وحلّت سُليمى بطـنَ قـوَ فعُرعَـرا**

**كنانيةٌ بانتْ وفـي الصـدر ودّهـا    مجـاورةً غسـانَ والحـيّ يعمـرا**

**بعينيَّ ظعنُ الحـيّ لمـا تحملّـوا    لدى جانبِ الأفلاجِ من جنب تيمـرا**

**فشبهتُهم فـي الآلِ لمـا تكّمشـوا    حـدائقَ دومٍ أو سـفينا مُقيّـدا**[١]

يبدأ الحوار بلفظة "سما لك" وكأنه حوار مع الآخر، لكن الآخر لا وجود له وانما يمثل ذات الشاعر التي عصف بها الشوق وأحاط بها الحزن بعد رحيل الحبيبة. ويعود الى ذاته من خلال الكلمات "بعيني، فشبهتهم" ليؤكد حضور الأنا وهي الذات الحقيقية للشاعر. حيث يتجلى روعة الوصف لرحيل الحبيبة مشبهاً ظعنها بحدائق الدوم مرة وبالسفينة مرة اخرى وبالنخيل المغروسة في الماء ثالثة. ان تغيير المكان قد اثار اشواق الشاعر الفاترة في القرب المتأججة في البعد وهذا هو ذروة الصراع الداخلي الذي يشعر به.

---

(١) الديوان: ٥٦-٥٧.

# خاتمة

وخلاصة القول تتحدد ابعاد الحوار في النص الشعري في عصر ما قبل الاسلام بسبب تأزم الصراع النفسي الذي يستبطن دواخل الشاعر ويمتلك عليه احاسيسه ومشاعره، كما يتجه الحوار للآخر انساناً او حيوناً او جماداً او نجد الشاعر يحاور نفسه حين يجد حاجة ملحة للصراع النفسي الذي ألم به من موقف او حدث. كما أنّ الشاعر يوظف اللغة خدمة للاسلوب الحواري الذي يقيمه مهيئاً لكل امكانياته الفنية واللغوية لتؤدي الغرض المطلوب وتنسجم انسجاماً تاماً مع قوة الحدث وتتابعه.

كما نلاحظ من خلال النصوص الشعرية سعي الشاعر الى بناء النص ورفده بمقومات الترتيب وتهيئة عناصر التشويق والتتابع في تغذية الصراع الدرامي.

## قائمة المصادر والمراجع:


١. آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءات السباقية، دراسة، د. محمد بلوحي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (٢٠٠٤م).

٢. ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق د.محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر.

٣. ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه، مصر، (١٩٥٨م).

٤. ديوان الخنساء، شرحه ابو العباس أحمد بن يحيى بن سيار ثعلب الشيباني النحوي (ت ٢٩١ هـ)، حققه: د. أنور أبو سويلم، دار عمار، ط١، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨م).

٥. ديوان امريء القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ط٣، (١٩٦٩م).

٦. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط٣، (١٩٧٩م).

٧. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تحقيق عبد العزيز الميمني، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، (١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠م).

٨. ديوان سلامة بن جندل، تحقيق: فخر الدين قباوة، توزيع المكتبة العربية في حلب، ط١، (١٩٦٨م).

٩. ديوان شعر الملتمس الضبعي، رواية الأشرم، وابي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، (١٩٧٠م).

١٠. ديوان طرفة بن العبد، شرح الاديب يوسف الأعلم الشنتمري، وقد اعتنى بتصحيحه ونقله الى اللغة الفرنسية: مكس سلفسون، طبع في مدينة شالون بمطبعة برطرند، (١٩٠٠م).

١١. ديوان عامر بن الطفيل العامري، بشرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري.

١٢. ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي، صنعة: هاشم الطعان، وزارة الأعلام، بغداد، سلسلة التراث العربي، رقم (١١).

١٣. ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الاسلامي، (١٩٦٤م).

١٤. ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط٢، (١٩٦٧م).

١٥. سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب، يوسف ميخائيل أسعد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٤م).

١٦. شرح أشعار الهذليين، صنعة ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري، رؤية ابي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي، عن ابي بكر احمد بن محمد الحلواني بن السكري، حققه: عبد الستار احمد فراج، راجعه محمود محمد شاكر

١٧. شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له: د. احسان عباس، الكويت، (١٩٦٢م).

١٨. عشرة شعراء مقلون، صنعة: د. حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، (١٤١١ هـ / ١٩٦٠م).

١٩. قراءة علي أبي العباس ثعلب، تحقيق: د. محمود عبد الله الجادر و د. عبد الرزاق خليفة محمود الدليمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، (٢٠٠١م).

٢٠. كتاب الأمالي، أبو علي القالي، دار الجيل، بيروت، ط٢، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م).

٢١. مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، دار الحقائق، بيروت، ط٤، (١٩٨٥م).
٢٢. المهلهل بن ربيعة التغلبي ــ حياته وشعره، دراسة وتحقيق: نافع منجل شاهين الراجحي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، (١٩٨٦م).
٢٣. نقد النص، منهج في نقد القصيدة العربية، د. صلاح عبد الحافظ، دار المعارف، ط١، (١٩٩٣م).

